في الكوخ

قصة عن فاندا فاسيلفسكا

« وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف الى النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ ، أهي محكمة القفل ؟ موصدة لا تفتح ؟ »

« جدتي ! اصغي ! جدتي » .

فنظرت « أنيسيا » إلى أعلى . كانت « تالكا » تناديها من الناحية الأخرى من السور .

« ماذا » ؟

« أتسمحين لي بالمثول دقيقة واحدة » ؟

« ليس ما يمنع من ذلك . احضري إذا شئت » . وأخذت « أنيسيا » تنعم بطريقتها المعهودة .

ما أدفأ أشعة الشمس في ذلك النهار . وأخيراً وجدت عظامها المتصلبة النابضة بالألم بعضاً من الدفء يتغلغل فيها . شمس يولية الجميلة الشفيقة . ألا ليت الأمطار تدعك ؟ أمّا ما كانت تتوقع فقد بللها وأزعجها قبل أن يقع المطر ! كلا ، كلا . فليس من شيء هو ألعن من أن يهطل المطر . فلو أنه هطل ، إذن لتألم كل جزء من عظامها . تألم بفظاعة . ثم تتورم مفاصلها ، ويستعصي عليها أن تخطو خطوة واحدة . ولكن عند ما تكون الشمس مشرقة ، وبالأخص كما كانت تشرق في ذلك اليوم ، فان الحالة تختلف . فما أبهج شمس يولية وهي تداعب الأرض بأشعتها الذهبية .

« جدتي » .

« ماذا بعد » ؟

« أتسمعينني » ؟

« لم لا ؟ طبعاً أستطيع أن أسمعك » .

قالت أنيسيا ذلك وهي ماضية تتمتم عجباً . ان هذه الفتاة تطلب شيئاً على الدوام . لماذا لا يتركن عجوزاً مثلي أستريح في سلام ؟ ان مثلي لا يطلب من الحياة مزيداً ؟ قليلاً من سلام النفس يكفي . بضع ساعات فقط قبل أن يحضرني الموت ، الموت الذي هو آخذ طريقه نحوي » . في هذا اتجهت أفكارها .

عادت تالكا قائلة : « جدتي : انظري إليّ » .

فرفعت العجوز جفنيها الثقيلين نحو الفتاة بانتباه ، وثبتت عيناها الغائرتان وكأنهما

مشفاتين برق خفيف

« جدتي : إن الألمان قادمون » .

هزت أنيسا كتفيها . لقد سمعت هذه الأخبار منذ أيام مضت . كانوا قادمين ! أقادمون هم ؟ حسناً . وماذا يحدث لو انهم قدموا ؟ فان الألمان ولا شك سيتركون حزمة من العظام مثلها تموت في سلام . إذا كانوا قادمين ، فليكن ذلك ! الألمان — رنت هذه الكلمة في أذنيها وكأنها شيء بعيد من سمعها . وفي الحقيقة ، لم تنقل إليها هذه الكلمة أي معنى . أهمّ من ذلك عندها أن تتشمس وتشعر بالحرارة اللذيذة تسري في عظامها الموجعة . الألمان — فليهتم صغار السن بالألمان .....

أمر لا يزعج عجوزاً مثلها حطمها الزمن

« جدتي : اننا سنغادر هذا المكان ونمضي إلى الغابة » .

« حسناً . اذهبوا إذا شئتم . أي شيء يعنيني في ذلك ؟ ألست ذاهبة معكم » .

فأمسكت نتالكا بذراعها وقد ذهب صبرها ..

« كلا لا تفعلي ذلك . إنه يؤذيني . والآن ، ماذا تريدين مني ؟ » .

« جدتي . جدتي . تفضلي واصغي إليّ دقيقة واحدة » .

« إني مصغية »

« أتسمعينني »

« نعم . ماذا تريدين ؟ »

« جدتي . نحن ذاهبون الى الغابة . والدي ذاهب معنا وأنا أيضاً . وكذلك كل من هنا » .

« حسناً . اذهبوا إذن . ان الألمان قادمون . هل هم قادمون حقيقة ؟ من الطبيعي أن تطيروا إلى الغابات . أما أنا فسوف أظل هنا ... أتشمّس »

« جدتي : إن في حديقتنا رجلين من جنود الجيش الأحمر »

« اثنان ... ماذا ؟ »

« اثنان من الجيش الأحمر . أتفهمينني »

« نعم . ولكن ماذا يطلب مني إزاء هذا الأمر »

أخذت الفتاة تهزها بيأس ممسكة بكتفيها .

« جدتي : انك في سنة من النوم مرة ثانية . اجتهدي ألا تنامي »

« اني لا يأخذني النوم . وانما يهوم النعاس بجفوني لا أكثر »

« جدتي . أأنت مصغية إليّ . في حديقتنا رجلان من جنود الجيش الأحمر . تحت ظلالنا ، بمقربة من شجر البرقوق »

« حسناً وماذا يهم . أفتنت بأحدهما ؟ »

تنفست نتالكا الصعداء يأساً وقنوطاً ، فجلست القرفصاء تلقاءها ونظرت في تينك العينين الخائرتين اللامعتين نشاوة المرض والزمن ، وأفصحت لها بصوت عال ، مخرجة كل لفظ بعناية تامة ، ضاغطة على الحروف حتى تبين تماماً .

« جدتي . ان في حديقتنا رجلين من

جنـد الجيش الأحمر . أنهمـا جريحين ، ولا أستطيع أن نأخذهما معنا . أنهما مريضين حتى لا يستطيعان الحركة . أتفهمين

« نعم . نعم . أفهم . ينبغي أن يخرجا في الشمس »

« ولكنهما يا جدتي جريحين . فيهما جراح بالغة . أتفهميني ؟ وجيشنا سنجلو إلى الغابة . وقد يقدم الألمان أي وقت الآن . . جدتي . هم في حاجة إلى من يأتي لهما بشربة ماء . أعطيهما شيئاً من عنايتك . أتفهمين » ؟

« لبس فيما قلت شيئاً يفوت الفهم ! أفيما قلت شيئاً من ذلك ؟

«أفي استطاعتك أن تعملي بهما ذلك» ؟

« لمَ لا ؟ ما دامت الشمس مشرقة ، وعظامي لا تدق بالألم ، فسأخدمهما بكل عناية »

« انك لم تنسي بعدُ أين هي ظليلتنا ؟ »

« كلاً . بالطبع لم أنس »

« إذن فستعني بهما »

« نعم . نعم . سوف أنظر في أمرهما »

« ولكن كوني على حذر فإن الألمان لا ينبغي أن يلحظوا شيئاً ، ! »

« سوف لا يلحظون شيئاً أبداً . ولم يتعبون أنفسهم في متابعة امرأة عجوز ؟ سوف أتظاهر بأني أطوف على غير هدًى هنا وهناك ، حتى أمر بأشجار البرقوق — فأمر بأشجار البرقوق . . »

« بحقك لا تنسي يا جدتي » .

« وكيف أنسى ؟ اثنان ! أ كذا قلت ؟ هما في حاجة إلى الماء . . . وإلى إنسان يوتر مضجعيهما . . . وأشياء أخرى من هذا القبيل ، قليل من الطعام ، على ما أتخيل . ذلك ما سوف يطلبان ؟

هنا أخذ الفرح من قلب الفتاة .

« نعم . نعم يا جدتي . غير أنهما لا يستطيعان أن يأكلا الآن . . . المسكينان : ما أتعسهما . ولكن بعد مضي يوم أو يومين . . . ربما . . عند ما يشعران بأنهما أحسن قليلاً »

« سأفعل ما في وسعي . سأحدر إليهما قليلاً من الخبز وبُلغة من شيء آخر . سأعني بهما » .

« ومتى تذهبين إليهما » ؟

« إني ذاهبة الآن . . . وبعد قليل سأعود إليهما . لا تقلقي . فكل شيء يجري حسب مرامك » .

« لا تنسي » .

عند ذلك أخذ الغضب من العجوز فاحتدت قائلة :

« لقد أوسعتني وقاحة : تذكري مرة وإلى الأبد أن جدتك أنيسيا إذا وعدت بشيء فإنها تحتفظ بكلمتها . ماذا يقلق بالك ؟ أتظنين أن جدتك أنيسيا حزمة قديمة من العظام لا منفعة فيها ولا قيمة لها ؟ لا شيء من ذلك . . . . ما دام هناك شمس مشرقة فإني أستطيع أن أعمل عملاً » .

وبقت تاتاكا على اليد الراعشة المجعدة تحنو

«حسناً . استودعك الله يا جدة . أكاد أكون متأكدة من أننا سوف نعود سريعاً . ولكن في الوقت الحاضر ينبغي أن نختفي ويندر ظهورنا . سنظل نرقبهم من الغابات »

تمتمت العجوز . « هذا حسن . . . من الغابات . . . لا تقلقي سوف يكونان بخير وعافية عندما تعودوا . . . سوف لا أنسى تنبيك . »

وارتفع صوت من الناحية الأخرى من السور :

« تنالكا ! أين أنت ؟ تنالكا ؟ »

« إني قادمة يا أبي ! إني قادمة » .

وأشرقت قدماها البيضاوان في ضوء الشمس . ومرت أنيسيا وأسها .

« كأنها معزاة مرحة صغيرة . حسناً ، أيتها العظام القديمة — لقد حان الوقت الذي تمنين فيه بالتنبين . . . . »

جهدت حتى انتصبت على قدميها . ولا بدّ من جهد تبذله حتى تقوم . فاذا قوّمت ظهرها حلتها قدماها الوجعتان إلى حيث تريد واستندت بصلابة على هراوتها ومضت تطوف في الحديقة وتطلعت عيناها النصف مكفوفتين في ممرات الحديقة تحت أشعة الشمس وهي بها خبيرة . تطلعت فإذا بها تتخيل أن جميع الممرات مغلقة غير مطروكة . لقد عاشت هنا ، في هذه البقعة . كم من السنين ؟ تسعين . واحداً وتسعين .

« كلاً . لقد ضللت . لقد أثقلتني السنون الطوال . كم مرةً بي منها » ؟

دارت من حول السور ودخلت حديقة جارها ، والد تنالكا . وكانت أشجار البرقوق في الركن هنالك بعد منصرف عبّاد الشمس والقنب ودغل التوت . الظليلة . . . بناء متداعٍ مسقوف بالحطب والبوص . . . . مغمور في أغصان ملتفة وأماليد كثيفة . واستدارت من حوله لتجد المدخل .

يصعب أن تعثر به . لقد أمعنوا في تنكيره حتى ليتعذر أن تجده .

جريحان مستلقيان هنالك على القش . جثت العجوز ونظرت اليهما .

« لم إذا . ارحمنا ! انهما ما يزالان في ميعة الشباب » .

— تنبه أحد الجريحين من الذبوة المحمومة التي أخذته ورفع رأسه المعصوبة .

صاح : « من هنا » ؟

« صه . صه . انها الجدّة أنيسيا جاءت لتراكما . ارقد ساكناً وكن مستريحاً »

« ماء » .

« ماء . بالطبع سأحضر لكما بعض الماء يا ولديّ . سأحضر لكما كل ما أنتما في حاجة اليه » .

« لم تعرف تلك العجوز الفانية من أين أتتها العافية . وقف الألم الممض الذي كان يعصر قدميها عصراً . تيده ، فأخرجت من البئر قليلاً من الماء وملأت منه صواعاً وعادت إلى الحديقة ، ثم إلى الظليلة بِمِعْبَد

أشجار البرقوق .

« هوذا . اشرب ، اشرب يا بنيّ . ماء زلال رائق بارد . جئت به من بئرنا . إنه حقيقة ما يرد الحياة وليس ككل ماء » .

كان المريض الآخر يتململ في حمى تقرع أوصاله وترض مفاصله . فبلت خرقة ووضعتها من فوق جبينه .

« وهكذا ! قد يتفق أن يكون جسد منهوك متداع بالتقدم وبالزمن ذا متعة ... وتاللّه ... ويح الطريقة التي اتبعتها معي ! ... ويحها من طريقة ! من ذا الذي يجهل أن المريض يحتاج إلى شربة ماء ... وأنت يا بني أرقد في سلام وأرح نفسك . احتمل لصبر يوماً أو يومين . سوف تتحسن حالك بعدهما »

وضعت الصواع بجوار الجريحين ودلفت من ثمَّ إلى صومعتها فلما بلغتها ، جلست ثانية على درج الباب وأغفت بعد أن أتمتها واجبات ذلك النهار . لقد ظلت نائمة حيث هي طوال الوقت شاعرة بطنين الذباب المتكاسل من حولها وبحرارة الشمس وبالنعمة التي تغشاها من الدفء الذي نمته الشمس في جثمانها . ولكن برودة المساء أيقظتها . وبجهد جاهد انطلقت نحو الجريحين ، ثم عادت إلى صومعتها «حسناً . لقد مرَّ بي النهار في النهاية ... وفي الغد ! سيكون الغد يوماً مشرقاً صافي الأديم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني دخل ثلاثة رقادها . أما الجدة أنيسيا فلم تأبه بهم أي شيء . ماذا يهمها من الألمان ؟ بعد أيام قلائل قد يأتيها الموت ... ذلك الموت الذي تلكأ طويلاً على الطريق

انتظرت هادئة . وكانت تسمع أصواتاً خشنة تنطلق بلغة غريبة عنها . فلتدعهم يثرثرون . ماذا يهمها ؟ إنها لن تفهم شيئاً منهم نادوها . فابتسمت بطيبة قلب ، واجتهدت في أن تفحص عنهم بنظراتها لعلها تعرف أي أناس هم . نعم . هنالك ثلاثة منهم . ثلاثة رماة ، لا يكبرون الفتيين اللذين يرقدان في الظلمة — هنالك في الركن الأبعد من حديقة جارها . وسرعان ما شغلتها فكرة . أيوجد في الصواع قدر كاف من الماء ؟ أما لو ذهب هؤلاء وتركوها في سلام . لقد حان الوقت الذي ينبغي أن يعنى فيه بأمر الفتيين . نعم . ستفعل ذلك بمكر ودهاء . باحتيال . وسوف لا يشتبه في أمرها أحد فمن ذا الذي يهتم بعجوز تقعد حتى عن المشي والسعي لحاجتها ؟

نادوها . ثم نادوها صارخين ، ثم ذهبوا . ظنت أنيسيا أن هذا آخر ما ترام . ولكنها ما كادت تهم عن درج الباب حتى ملأ الألمان الفناء .

« أهذه صومعتك ؟ »

رفعت ذراعها لتقي عينيها وهج الشمس . كان أحدهم يكلمها بالأوكرانية — بلغتها الأصلية ، ولكن الكلمات كانت تخرج من فمه خشنة لا عذوبة فيها . وفهمت بالضرورة كل ما قال

ولكنها لم تجد من نفسها رغبة في الكلام. ولكن الضابط أخذته الحدة. « تكلمي! أهذه صومعتك » ؟

« صومعتي! لماذا » ؟

وأخذ الضباط يتناجون. ولكن أنيسيا كانت في ثورة من الغضب الحاد، لأنهم حالوا بينها وبين الشمس، ومضت تخرج أنفاسها بشدة، فكان لها زفير.

« ما هذا ! » .

« لا شيء. انه لا شيء » .

« افتحي الباب » .

« لماذا . انه مفتوح » قالت ذلك بصخب يمازجه الغضب.

صاح فيها المترجم. « افتحيه إذا أمرت بذلك ».

بكل بطء، وبكثير من التأوه والتوجع جاهدت حتى قامت على قدميها، ثم مالت بصلابة على هراوتها ودفعت الباب فانفتح على مصراعيه ودخلت الصومعة. فازدحم الضباط من ورائها.

« انها صومعة صغيرة مكدسة بالأشياء». ذلك ما لاحظ الكولونيل مقطباً وجهه.

« يمكن أن تفتح النافذة». فاندفع أحد صغار الضباط نحو النافذة ودفع مصراعيها، فأحدث دفعهما بتلك الشدة جلبة جعلت ينزّ الحديقة النضرة المبللة بندى الصباح.

قال اللازم: «سلها أين ذهب الأهلون»؟

وقفت أنيسيا حيث كانت متوكئة على هراوتها تتأمل هؤلاء الغرباء في صمت عميق.

«كيف أعرف أين ذهبوا» ؟ وهزت كتفيها للمترجم عندما وجه لها السؤال.

«إني عجوز فانية، وقلما أخرج من الدار».

« هل تبيتين وحدك هنا » ؟

« نعم. وحدي. عشر سنوات مضين الآن وأنا وحدي. لا أحد معي ».

تركوها في سلام. ولكنهم احتلوا المنزل وتبوءوا كل مكان فيه: الرفوف والمقاعد والفراش وبدءوا يتكلمون في أمر مّا صاخبين. ظلت هي حيث كانت برهة ما ثم اتجهت نحو الباب. ولكن يداً ثقيلة سقطت على كتفها وجذبتها إلى الوراء. فتحققت أنهم لن يسمحوا لها بالخروج من الصومعة. وأخذ اللازم يناقش في شيء ما مع المترجم. واستمر نقاشهما برهة غير وجيزة.

« انتبه إليها ولا تغفل. قد تكون امرأة عجوزاً عمياء. ولكن الشيطان وحده يعلم ما تخفي وراء ذلك. قبل أن تعرف ما هي، قد ترسل نبأ إلى ناحية مّا بأننا هنا. وأوامري تقضي بأن لا تتركوها تخرج من الصومعة. ألقوا عليها نظركم باستمرار، ولا تغفلوا عنها برهة واحدة » .

فلما أعرب لها المترجم عن أنها لابدّ من أن تظل في داخل الصومعة دائماً، نفضت أنيسيا رأسها علامة الفهم مرات. أي فارق عندها ؟ لقد أمرت أن تظل في داخل

الصومعة . إذن فلتظل في داخل الصومعة .

تسلقت سطح الموقد حيث فراشها واختفت .

أما الألمان فكانوا يتكلمون صاخبين في داخل الحجرة ، وقد بسطوا على المائدة بعض الخرائط ومضوا يتهامسون ويصفرون ، وأرض الغرفة تقعقع تحت ثقل أحذيتهم ذوات الدسر الحديدية لم تأبه بشيء من ذلك . وظلت في غفوتها ، والذباب يطن من حولها ، والأبواب تجلجل ، والجند يخرجون ويدخلون مسرعين . كل هذا كان يصل إلى حسها كما لو كان من وراء ضباب كثيف ، فان جسمها كان واقعاً تحت سلطان ذلك الخدر الذي يسبق النعاس .

ولكن القلق ساورها عند ما جنّ الليل . فهناك في الظلة الخفية وراء أشجار البرقوق قد يحتمل أن لا يكون في الصوامع نقطة ماء . والفتيان ! لا شكّ في أنهما ينتظران الجدة « أنيسيا » بفارغ الصبر . ولا ينتظر أن يكونا قد عرفا ما هو واقع في ذلك المكان . وكل ما يتبادر لهما أن العجوز قد نسيتهما ، وأنها أكسل من أن تأتي بحركة ...

كانت حينذاك في تمام اليقظة والتنبه ، متطلعة إلى كل ما يحدث من حولها في الحجرة . تجمعوا من حول الباب ، ولكنها كانت تراهم يروحون ويغدون في المشي . أيتيقف حارس إلى جانب الباب يلحظه ؟ كلا . ليس من فرصة للخروج متاحة بحيث لا ترى

وازلقت هادرة من فوق الموقد

« إلى أين أنت ذاهبة » ؟

جملة قالها المترجم وقد ظهر بجفاءة ، كما لو كان قد خرج من الارض . فردت عنها يده غاضبة بطرف هراوتها .

« والآن : كفّ عن هذا . . . لي أن أخرج بعض الأحيان . ألا تفهم » ؟

رجع عنها ، ولكنها لاحظت انه يتعقبها . فهزت كتفيها صامتة .

« حسناً . أتقول إن الالمان يخشون امرأة عجوزاً ؟ وعلى الرغم من هرمي ، فأني أقدر أن آتي عملاً . كذلك هم يظنون . حسناً جداً . راقبني . راقبني »

عادت أدراجها الى الكوخ ، وقبعت في مكانها من فوق الموقد . كانت مشفقة على الفتيين . وكانت الفكرة فيهما تجثم على صدرها . همس في وعيها هاتف وكأنما تقول كان من الممكن أن تتمكن « ناشا » الصغيرة من التسلل إلى الخارج . أما أنا ... جسد متهدم عتيق مثلي . ماذا أستطيع أن أعمل يا ولدي وهم لا يسمحون لي بالخروج إذا أردت . هم يدرجون من ورائي كما لو كنت مَنْ . . مَنْ ذا يعلم إلا الله ... من أنا . والآن : ماذا أفعل . ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

ومضت تتقلب في فراشها قلقة ، ترسل أنفاسها دفينة قوية .

فلما هوّم النعاس برأسها وأخذتها غفوة حلمت بهما . كانا يطلبان ماء ... يتوسلان . يطلبان الماء ، ولكن ليس هنالك قطرة واحدة في الظلة . انهما يناديانها . يناديان الجدة

انيسيا . والجدة أنيسيا لا تحضر . لقد انحسر الرباط عن رأس أحدهما ، وليس من يسعفه برده حيث يجب أن يكون . انهما يشكوان إلى تاتاكا من أن الجدة أنيسيا لم تلزم كلتيهما ، وان تاتاكا تشير اليهما مهددة بطرف أصبعها معبرة عما يجول في رأسها . يا لله . انهمرت الدموع من عيني انيسيا لعنف ما سمعت . يا لله . انهما يصرخان بحدة ، يطلبان الماء . كانا يصيحان بصوت عال ، حتى فزعت انيسيا من نومها ، وشعرت أن شيئاً غير مرغوب فيه قد حدث . تململت من فوق الموقد ، ولكن خيل اليها انها ما تزال نائمة .

كان الضباط جالسين من حول المائدة ، على المقاعد ومن حول الفراش . وكان في مواجهتهما الفتيان صاحبا الليلة واقفان ومن حولها نطاق من الجند . خيل إلى الجدة انيسيا أن ذلك الرمد الذي أخذ يمشي على عينيها منذ سنوات قد انكشف عنها فجأة . رأت كل شيء بدقة لم تتعودها منذ أعوام طوال . يا للعجب . ها هي ذي ترى اللفائف على رأسيهما وأرجلهما واذرعتهما . وها هي ترى ما في قسمات وجهيهما من التعبيرات . كانت عيونهما تلمع بأشعة محمومة هاذية . رفعت انيسيا رأسها من فوق الموقد ، وأظافرها الحادة تقطع راحتيها غيظاً ، وانما فعلت ذلك لتنصرف بهذه الحركة عن البكاء بصوت مسموع ...

جلس الكولونيل في وسط الحلقة ، مستلقياً على مقعده بعظمة ، وخياله يتراءى رواحاً وجيئة على حائط الجهور كلما تحرك . وكان مصباح الغاز يلقي ضوءه الى أسفل ، فكانت عينا الكولونيل تتواريان في حدقتيهما الغائرتين . وكان المترجم واقفاً إلى جانب المائدة على مقربة من الجريحين . سأل الكولونيل سؤالاً ، فأعاده المترجم بلغتهما ، ولكن بصوت أجش كريه .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

وكانت الجدة أنيسيا تستطيع أن تسمع بدقة ، كأنما تلك السدادة التي سدت أذنيها سنين ، قد زالت في لحظة . وكانت تصل اليها الكلمات واضحة بينة ، على صورة لم تعتدها أياماً طوالاً .

حتى أنفاس الجريحين المترددة العميقة ، كانت تصل سمع « أنيسيا » وهي مستجمعة من فوق الموقد . كانا يجاهدان في سبيل التنفس بقوة من فيهما اليابسين . كانا يترنحان ، ولكن أيدي الجنود الألمان كانت تسندهما بقوة وخشونة ، ليثبتا بمكانهما .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

لم يجيبا . وقرع الكولونيل بيده على المائدة بشدة عنفاً .

« قل لهما اني لا أحتمل شيئاً من هذا الهذر . أهذا واضح ؟ قل لهما ان نصيحتي ، ونصيحتي الخالصة ، أن يتكلما . عرفهما ان لدي طرقاً خاصة لحمل أمثالهما ، على ما من

أي الوحدات هنا ، ومتى نزلت الوحدة هناء والى أين ذهبت ، ومن أين أنت ، وأين الجيش ، وأين سكان القرية . وفي أي المعارك حاربا ؟ هذا ما أطلب . ابتدىء ! »

أدركت أنيسيا من صوته ما فيه من تهديد ووعيد . شعرت بأن قلبها يدق وكأنه سينفجر . دق قلبها دقات قوية لم تعهدها من قبل ستين طويلة ، وخيل اليها أن أولئك الجالسين من حول المائدة سوف يسمعون هدير تلك الثورة القائمة في صدرها . ولكن لم ينظر نحوها أحد منهم . كانت كل العيون متجهة إلى الفتيين الواقفين أمام المائدة ، تسندهما أيدي الجند الخشنة القاسية .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

تنفس الفتى المشجوج الرأس طويلاً وبعمق . وانتظرت الجدة أنيسيا الجواب ، وهي تنتفض من قدميها لفرق رأسها .

« سوف لا أجيب » !

« انك لا تجيب . حسن . اليك ياهانس ساعده حتى يخرج . إنه لا يستطيع أن يخرج الكلمات من بين أسنانه . اذهب وخذ بيده »

رفع الجندي يده وضرب الجريح الروسي على وجهه بجمع يده . ارتدت تلك الرأس الجريحة إلى الوراء . الرأس التي تغشاها تلك اللفائف القذرة الدامية . ولكن الجريح استجمع إرادته وبذل جهد الصابر فتماسك ولم يتضعضع .

« سوف لا أخبرك » !

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف » .

« أنت لا تعرف ، إليك ياهانس . نبه ذاكرته . أيقظها ! أن الفتى المسكين قد نسى ولكننا سنجعله حتى يتذكر . نعم : سنبذل غاية جهدنا حتى يتذكر » !

تبع ذلك ضربة على الفك ، ثم ثانية وثالثة : وظهرت على اللفافة قطرات من الدم الجديد : وبجهد عظيم كتمت أنيسيا عواطفها فلم تصرخ ، وحبست صوتها المتهدج في حنجرتها الواهية .

« أين القرويون » ؟

« لا أعرف : لم أر منهم أحداً » .

وفي سورة من الغضب لوى الكولونيل حزمة الاوراق التي كانت أمامه على المائدة وأخذ يفركها بأصابعه .

« انه لم ير أحداً منهم ياهانس . تصور . انه لم ير أحداً منهم . تقدم إذاً وأر له عينيه . أتفهم . خذ بيده حتى يستطيع أن يرى » .

سقط رجل الجيش الأحمر على الأرض . وانتصبت أنيسيا . كلا . لن يكون ذلك . ان عينيها المتيقظتين تغرزان بها ! فقد استل الجندي سكينه وجلس آخرلن على صدر الرجل المنطرح على الأرض ، وبكل تؤدة وثبات أولج الجندي نصل ذلك النصل الحدود في عين الجريح اليسرى . وسرى إذ ذاك عويل وحشي ملأ جو المكان ثم سكن بغتة .

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف سوف لا أخبرك . انك لن

تفوز بشيء مني » — كان هذا جواب الفتى الجريح ، ولكن بصوت عميق شديد جاف . وانحدر الدم من الحدقة المنجورة إلى فمه وقام الكولونيل من مكانه وانحنى على الرجل المحتضر وارتسمت على وجهه أمارات دلت على الدهشة والعجب ، ثم ركل الجسد الجامد بطرف حذائه

« اسأله للمرة الأخيرة هل هو مجيب » ؟

وانحنى المترجم على الفتى الممدود على الأرض . وسمعت الجدة انيسيا صوت الدم يحشرج في صدره . ومن خلال ذلك الصوت الكريه استطاعت أن تسمع بضع كلمات تخرج بتثاقل وجهد ، مختلطة بأنات الألم ، وكأنها تسمع :

« أيها الرفقاء ، هيا ، تقدموا مسرعين الوقعة الأخيرة ، فلنتقدم » .

« ماذا . ماذا . ماذا يقول » . سأل الكولونيل باهتمام .

« لا شيء » .

« ماذا تعني بلا شيء . إنه قال شيئاً ؟

« قال شيئاً غير مفهوم » .

« اقض عليه إذاً » بذلك أمر الكولونيل .

« فرفع الجندي سكينه » .

« لا ليس هنا . خذه في الخارج » .

فأمسك الجندي بذلك الجسد الجامد من تحت الإبطين وجره نحو الباب . ورأت انيسيا رجليه الواهيتين تنسحقان من فوق الأرض فتتركان أثراً من الدم في طول الحجرة

جلست حيث هي ، ويدها على قلبها ، كأنما هي تثبته مكانه . وتراءت خيالات سود على الحائط . هناك كان الفتى الثاني واقفاً أمام المائدة . كان يتمايل ضعفاً . ولكن أيدي الجند الخشنة كانت تمسكه .

« سله »

سترت أنيسيا رأسها تحت الغطاء . وسدت أذنيها حتى لا تسمع ، وغمضت عينيها بيديها حتى لا ترى ، ومع تنهدة خرجت من أعماق نفسها لعنت مصيرها الذي جعلها تعيش الى التسعين أو ما فوقها حتى أوصلها الى هذه الليلة الليلاء . لعنت عينيها لأنهما لم يفقدا ضوءهما ، ولعنت أذنيها . لماذا لم تفقد عيناها البصر ، ولم لم تفقد أذناها السمع ؟

ومن خلال الغطاء استطاعت أن تسمع الرواية الأولى تتكرر ، الصرخة الداوية ، وأنات الألم العميقة .

« لا أعرف ، سوف لا أخبرك » .

ساد السكون . ومضت برهة لا تستطيع فيها أن تمد رأسها من وراء غطائها لتتطلع ، وبعد لأي مدت رأسها بتباطؤ . ان الألمان يتأهبون للنوم على ما يظهر . انهم يخلعون الأحزمة والأحذية . لقد أغلقوا المصاريع الخشبية على النوافذ وأقفلوا الباب ، وعسكر الجند في خارج الصومعة ، وظل حارس يذرع الأرض رواحاً وجيئة أمام الباب ولكن الضباط على ما يظهر لم يكن لهم ثقة بأحد . فقد امتحن الكولونيل بنفسه قفل الباب

وجس الباب والنوافذ ، واقترب من المرقد ليرى العجوز . أنائمة هي ؟

أقفلت أنيسيا جفنيها وتنفست بتخاذل وهدوء ، كأنها نائمة .

وأطفىء المصباح . وأخذ الزمن يمضي ببطء وهوادة . يا لله . كم هو بطيء ذلك الزمن . وفي ظلام الحجرة الضيق الدفيء ، كانت الثواني كأنها الاحقاب . أحقاب الأزل . لقد وقف الزمن فلا يتحرك . وكانت ذراعا أنيسيا وقدماها كأعمدة من الثلج ، وقد نضح جبينها بعرق بارد مثلج . وانحدر العرق إلى ظهرها ! لا بد لها من أن تفعل فعلتها . نعم هذا قضاء .

كان بعضهم يغط غطيطاً . وجلست أنيسيا من فوق المرقد ، وخيل إليها أنها قد ترى في ذلك الظلام الدامس ، وأن كل حركة تأتيها قد تسمع ، وقد تنم عنها . ولكن الأنام كانوا في نوم عميق . وكان غطيطهم منبعثاً من أنحاء المكان . هنالك هم يرقدون . متقلبين على فراش خشن من القش الجاف . ونام الكولونيل في المهد ومدت أنيسيا إحدى رجليها بحذر من فوق المرقد وانتظرت أما لو سكن قلبها عن ضرباته تلك . حتى هذه الضربات لا توقظهم . ولكن لا . إنهم في غمرة من النوم . النوم العميق الهادئ الذي تطلبه أجسام أنهكها التعب . وأخذت أنيسيا طريقها نحو الباب . ومن ثقبه أخرجت المفتاح بخفة ومن غير أن تحدث صوتاً . ثم مضت تحكم قفل الرتاج من وراء كل نافذة . أية قوة كانت مختزنة حتى تلك الساعة في اليدين الواهيتين المرتعشتين ! والآن وقد أحكم قفل الباب والنوافذ ، وسدت جميعاً بإحكام ، فليس في استطاعة أحد أن يدخل الصومعة ليقلق النائمين أو يوقظ الضباط

انتظرت دقائق ، ثم استدارت بخفة من حول المائدة ، نعم ، كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، إنها مملوءة حتى القمة ، لقد أتت بها تاليكا من المخزن قبل ذهابها وتركتها هنالك ، إنها ملآنة .

وشدت العجوز السدادة ، ومن غير أن تحدث أي صوت أخذت على الفراش ، وصبت قليلاً من الكيروسين على القش عند قدمي الكولونيل ، ثم ارتدت بخفة خطرة واحدة وصبت بحذر وبطء مثلها على الأرض حيث كان يرقد الضباط ، ثم على العتبة ومن حول الحجرة بأجمعها .

كان كل شيء جاف . الجدران والأبواب والمصاطب . منذ كم من السنين وقفت تلك الصومعة حيث هي ؟ كان فراشها الخشبي جافاً كالهشيم ، نعم ، الهشيم . طبعاً كالهشيم .

وبأصابع مرتعشة فتشت عن الثقاب تحت الغطاء ، وخيل إليها أن شعلة الثقاب قد رنت رنين طلقة نارية ، ولكن كل شيء كان هادئاً [illegible] الصومعة ، اللهم إلا غطيط الرجال النائمين عارياً تطيماً رجال أخذهم سلطان نوم عميق . وقربت الثقاب المشتعل من أرض

الحجرة ، ثم شعرت بأنها لا تقوى بعد ذلك على الحركة . وامتد اللهب بسرعة في الهشيم الجاف ، ملتويًا كأنه أفعى هاربة .

لم تستطع أنيسيا أن ترفع بصرها عن ألسنة النار ، ولم تشعر بأن ثوبها المشبع بالكيروسين قد اشتعل .

وبعد قليل نهض أحد النائمين صائحًا ، ولكن الصومعة كانت طعمة للنار الحامية ، التي اندلعت ألسنتها ، وكان أحدهم يعمل في الباب ليفتحه .

وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف في النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ : أهي محكمة القفل ، موصدة لا تُقتحم ؟

وصايا صحية

الفاكهة في الغذاء اليومي

من الناس من يأكل الفاكهة بعد وجبة كاملة ، إذ تكون الشهية متقلة ، والجسم مرهق بالتعب . وآخرون لا يتناولون الفاكهة حذر الإسهال ، وقليلاً ما تسبب الفاكهة هذا المرض اللهم إلاّ إذا كانت قد تجاوزت حد النضج أو كانت في تخمر . وقد تسبب الفاكهة بعض الأحيان قليلاً من المتاعب إذا أكلت بين الوجبات وفي وقت غير مناسب . وينبغي أن تؤكل الفاكهة كجزء متمم للطعام ، فإذا كانت ناضجة نضجت ولم تضر .

الاحتياط في تناول الطعام

يعيش أكثر الناس على نصف ما يأكلون تقريبًا ويرهقون طاقاتهم الحيوية بإرغام الجهاز على التخلص من النصف الآخر . في حين كان من الواجب استخدام الطاقة المفقودة في الجهد العقلي أو الجسماني . والسبب المباشر لسوء الهضم هو تلك العادة الكريهة . عادة الجلوس إلى الطعام لأن وقته قد حان . ثم نغرى بالألوان اللذيذة فنأكل ونمتلئ ، في حين أن إباء الشهية وعدم الشعور بالجوع هو نذير الطبيعة يوحي إلينا بأن الأكل غير ضروري .

إن آلافًا من الناقهين قد ساروا إلى قبورهم بإغراء أصدقاء جهلاء أخطأوا إحسان قصد . ذلك بأنهم قد يشجعونهم على تناول الطعام والشراب ، ظانين أنهم بذلك يستردون قواهم ، فيفقدون كل شيء .